قراءة نقدية فى الجزء الثانى من رواية

" ملحمة السراسوه "

من تأليف : أحمد صبرى أبو الفتوح

بقلم : أبو المعاطى أبو النجا

يمكن القول كمقدمة عامة لهذا المقال أن الجزء الثانى من " ملحمة السراسوه" مكرس بكل فصوله لتجسيد الصعود الثانى للسراسوه ، فى مقرهم الجديد، وإذا كان الصعود الأول فى مدينة " سرس " قد تحقق بفضل المكانة العالية التى وصل اليها جدهم بين علماء الأزهر، فإن صعودهم الثانى يمكن رؤيته فى إطار صعود شرائح من الطبقة الوسطى الزراعية ربما لأول مرة فى هذه المرحلة من تاريخ مصر فى أواخر النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وهى شرائح تتألف من فلاحين يختلفون اختلافا كبيرا عن الفلاحين الذين كانوا قبلهم مجرد أجراء يعملون لدى كبار ملاك الأراضى من الأجانب أو الأتراك أو المماليك أو المصريين سواء أكانت ملكيتهم للأرض بنظام الالتزام أو العهدة أو ملكية الانتفاع، أو الفلاحين الذين جاءوا بعدهم ، وقدمتهم روايات مثل " الحرام " ليوسف إدريس، و "الأرض " لعبد الرحمن الشرقاوى ، و " الوسية " د. خليل حسن، فهذه الروايات قدمت لنا فلاحين مقهورين ، مغلوبين على أمرهم، ومهما ثاروا أو تمردوا، فقد كانوا دائماً ضحايا البشوات والإقطاعيين من الأتراك أو الأجانب أو المصريين، لأنهم كانوا مجرد أجراء فى الأراضى التى يعملون بها .

ولكن الفلاحين فى هذه الرواية كانوا جزءاً من الشرائح الأولى من الفلاحين المصريين الذين يمتلكون الأراضى ويزرعونها بأيديهم فى الوقت ذاته لأنهم فى تلك الأيام لم يجدوا فرصة للذهاب إلى مدرسة أو ربما لم يجدوا مدرسة أصلاً، بطبيعة الحال كانوا يستأجرون من يعمل معهم فى زراعة هذه الأرض من الأجراء، ولكنهم كانوا يعملون معهم فى الحقول يدا بيد ، فإذا جاء الطعام فى الغيط أو فى البيت أكلوا معهم من الطعام نفسه، ولذلك لم يكن غريباً أن تقول الأم الخبيرة إحدى أهم

الشخصيات النسائية فى هذه الرواية لحفيدها الشيخ أحمد كبير العائلة فى مرحلة الصعود الثانى و هو يواجه تحدى الحرب من جاره الأعرابى الذى يملك قوة أكبر... يمكنك أن تجعل من الفلاحين الذين يعملون معك مقاتلين فى صفك .

نكتفى بهذه الإشارة فى حدود هذه المقدمة التى نؤكد من خلالها أن الصعود الثانى للسراسوه يمثل نمطاً فريداً لصعود أسرة من الفلاحين المصريين الأقوياء الذين يملكون الأرض ويزرعونها بأنفسهم ومع غيرهم فى الوقت ذاته، وربما كانت تلك هى المرة الأولى التى تختفى فيها المسافة بين الملكية والعمل، وتضيق بين عمل المالك وعمل الأجير، ولهذا أمكن لهؤلاء الفلاحين أن يدافعوا عن أرضهم ضد طبقة العربان الذين كانوا يعيشون على حدود الصحراء المتآخمة للدلتا لمهاجمة قوافل التجارة بين البحر الأبيض والبحر الأحمر، والذين حاولت الحكومات دائماً أن تملكهم الأراضى ليتحولوا إلى حراسة القوافل أو الزراعة دون جدوى !! ولكن مثل هذه النوعية من الفلاحين هى التى كانت تنجح أحياناً فى إعادتهم إلى الصحراء أو إيقافهم عند حدهم ! .

بناء الرواية :

يمكن القول هنا أيضاً أن البناء الروائى فى هذا الجزء امتداد للبناء الروائى فى الجزء الأول، وهو يقوم على ذلك الجدل بين صوت الحكايات التى تروى تاريخ العائلة، والذى يمثل الرؤية الجماعية للأحداث والشخصيات، وصوت الراوى الحفيد الذى يقدم لنا هذه الرواية، والذى ينزع إلى تمثيل الرؤية الفردية التى تطيل الوقوف أمام الجزئيات والتفاصيل التى قد لا تقف عندها الرؤية الجماعية التى تقدمها الحكايات .

ويقوم هذا البناء بتجسيد ورصد الصعود الثانى للسراسوه فى مقرهم الجديد، وقد تم هذا الصعود على نحو متدرج عبر حربين ساخنتين ، الأولى ضد الأعرابى عبد الله الجياصى الذى ورد ذكره كثيراً فى الجزء الأول ، والثانية ضد الأعرابى

الجديد عماد السمدانى الذى حل محل الأول، وحصل على أرضه وموقعه وفق النظام الذى كانت تتعامل به الدولة مع الأعراب .

وبين الحربين وبعدهما كان البناء الروائى ، ومن خلال الحكايات يقوم برصد وتجسيد أحداث حروب باردة وناعمة – بالطبع دون استخدام لهذه المصطلحات التى تستخدمها القراءة النقدية – تقوم داخل العائلة ذاتها، وإذا كانت الحروب الساخنة التى تهدد باقتلاع العائلة من جذورها كانت تؤدى إلى تماسك العائلة، فإن الحروب الباردة التى كانت تحدث فى أوقات السلم هى التى كانت تهدد بتفكك العائلة .

وأظن أنه قد حان الوقت لنختار ما ينبغى أن نتوقف أمامه من جوانب هذا العمل الكبير بالطريقة الممكنة فى مثل هذا المقال .

نظرة طائر على الحرب الساخنة الأولى للسراسوة
الذكاء والخيال والحكمة من أسلحتهم فى هذه الحرب

تقول الحكايات أن الشيخ أحمد الثانى الذى قاد رحلة خروج السراسوة من مدينة " سرس " ، والذى يقود الآن الصعود الثانى لهم، ظل لسنوات طويلة عاجزاً عن التخلص من ذلك الصوت الذى أحدثته ضربة البلطة فى رأس المملوك " قفل " وهى تغوص فى رأسه، وكان هو صاحب هذه الضربة الأولى، وأنه لهذا ظل يتجنب العنف فى مواجهة المشكلات، حتى هذه اللحظات التى طاردته فيها الرصاصات القادمة من مضارب الشيخ عبد الله الجياصى، وهو عائد من زيارة لمقبرة جدته الكبرى فى الحجايزه، وذلك بعد أن ظهر للجميع أنه ظفر بالمزاد الذى بيع فيه ٣٢٠ فداناً بجوار الأراضى الممنوحة للشيخ عبد الله، فالأعرابى لن يغفر له أنه بعد حصوله على هذه الأرض أصبح نداً له وهو الذى كان منذ شهور مجرد لاذ بجواره طالباً لحمايته !.

المُهرة التى كان يركبها الشيخ أحمد هى التى أنقذته من هذه الرصاصات، حين انطلقت فجأة تسابق الريح حتى كادت أن تسقطه من فوقها، وكأنما شعرت بالخطر وقبل أن تنطلق الرصاصات، ولكن الرصاصات التى أخطأته كانت تستقر فى أحزاء من جسدها ، ومع ذلك ظلت تواصل الركض حتى أوصلته أمام منزله .. يقول الراوى الحفيد فى تصويره هذا المشهد " ما الذى شعر به أحمد السرسى وهو يحاول دون جدوى إنقاذ مهرتّه؟! وكيف استطاع أن يعبر تلك المحنة الكبرى، محنة أن تكون مديناً لأحد ثم يرحل حتى قبل أن تمتن لما فعله من أجلك ! .. الرصاصات التى أخطأته وأودت بمهرته هى التى سمعها الناس فى القرى المجاورة ، وهى التى جاءت بعمد هذه القرى الذين كانوا جميعهم على علاقة طيبة بالشيخ أحمد ، وكان الشيخ أحمد يدرك فى الوقت ذاته أن الذى جاء بكل هؤلاء العمد من القرى المجاورة ليس فقط صداقتهم معه، وإنما إلى جوار ذلك كراهيتهم العميقة للشيخ عبد الله الجياصى، فقد كانوا يعانون من نظرته الدونية لهم كفلاحين تنقصهم عراقة الأصل، ويعانون أكثر من ابتزازه لهم بالأتاوات التى يفرضها مرة بحجة ما يقدمه لهم من خدمات لدى الحكومة التى هو على صلة برجالها الكبار، وبما يدفع عنهم من أذى المنسر واللصوص الذين يعملون له ألف حساب، وفى تلك الليلة التى اجتمع فيها الشيخ أحمد فى بيته مع عمد القرى المجاورة يفكرون فى الطريقة التى عليهم أن يواجهوا بها من أصبح عدواً لهم جميعاً ، انتهى تفكيرهم إلى ضرورة أن يكتبوا شكوى موقعة منهم جميعاً ، بشهاداتهم على ما حدث فى هذا المساء من عدوان بالرصاص صادر من مضارب الشيخ عبد الله الجياصى على الشيخ أحمد، وعلى ما كان يقوم به قبل ذلك من أعمال ابتزاز ضد العمد أنفسهم. ولكنهم كانوا يدركون فى الوقت ذاته أن الأعرابى الذى خاب مسعاه فى قتل الشيخ أحمد والذى يعرف أن نواياه السيئة قد ظهرت عارية للجميع، لن يظل صامتاً ، وسوف يعرف بأمر شكواهم لا محالة، وقد يحاول فى أية لحظة أن يكرر عدوانه بطريقة لا تسمح بتكرار الفشل، وفى ضوء هذا الإدراك وافقوا على ما قالت به " مريم " أم الشيخ أحمد صاحبة أهم الأدوار فى الجزء الأول من هذه الرواية من أن علينا أن نبادر

بالهجوم على مضارب الأعرابى لأن هذا يوقع الضعف فى نفسه، ولأنه من بدأ بالعدوان، وهكذا بدءوا هجوماً كان الذكاء أمضى أسلحته فقد قسموا أنفسهم إلى فريقين ، الفريق الذى يملك مهارة التصويب والإطلاق وفريق آخر يعيد حشو البنادق التى يتم إطلاقها، والى أن يتم الفريق الثانى عمله يكون الفريق الأول قد غير موقعه فيتم إطلاق النيران من أكثر من مكان، ويشعر من فى المضارب أن الهجوم يباغتهم من كل ناحية، ولقد أدى الهجوم بتلك الطريقة إلى أن يرد رجال الأعرابى بشكل عشوائى لإيقاف هذا الهجوم المتعدد المصادر مما أدى إلى نفاذ ذخائرهم ، كما أدى تعدد مواقع الهجوم إلى إصابة خطائر الخيول فى مضارب الأعرابى فانطلقت هاربة فى الحقول والقرى المجاورة، وكان لهروب الخيل ووقوعها فى أيدى أهالى القرى المجاورة أكبر الأثر فى شعور الأعرابى ورجاله بالفشل والخذلان، فى صبيحة اليوم التالى جاءت قوة من العسكر قوامها ثلاثة جنود يرأسه آمر مملوكى لتحرى الواقعة، وبعد أخذ أقوال الشيخ أحمد ومن معه من العمد اتجهت القوة لاستكمال التحقيق فى مضارب الأعرابى التى كانت تعيش حالة من الفوضى والشعور بالخذلان، بعض من كانوا فى وضع الحراسة لهذه المضارب أخطئوا فى تقدير المسلحين القادمين عليهم فواجهوهم بإطلاق الرصاص مما أدى إلى قتل الآمر المملوكى وجنديين ممن كانوا معه، هكذا كانت الأمور تتطور بشكل يبدو ظاهره أنه لصالح الشيخ أحمد السرسى، فالقضية الآن كما يلوح سوف تصبح بين الأعرابى والحكومة التى قام رجاله بقتل ثلاثة من ممثلى سلطتها العسكرية، ولكن الحقيقة التى كان الشيخ أحمد يدرك وحده وجهها الآخر المخيف هو أن تطور الأحداث يجرفه إلى طرق كان يتجنب الأقتراب منها ، فالعنف الذى كان يعانى من آثاره الأليمة، وجد نفسه مضطراً إلى الانغماس فيه، وحتى الحادث الأخير الذى تورط فيه الأعرابى سوف يؤدى إلى أن يأتى إلى المكان مسئولون كبارا فى السلطة لتحرى هذا الأمر الذى يمكن أن يؤدى إلى قتل ثلاثة من رجال الحكومة ، وسوف يكون هناك تحقيق مع جميع الأطراف، وتتزايد الأسئلة عن أصل كل شئ وفصله مما قد يؤدى إلى كشف السر الكبير الذى قاد الأسرة الكبيرة إلى طريق الخروج من

مدينة " سرس " ، وماذا سيكون رأى العمد الذين يقفون الآن بجواره ويقاتلون معه دفاعا عن غيطه وبيته حين يتضح لهم أن هذا الصديق هو مجرد هارب من الحكومة بتهمة قتل المملوك " قفل " ، وأمام هذه المحنة لم يجد الشيخ أحمد بدا من التشاور مع أمه " مريم " التى كانت معه فى كل الأوقات الصعبة، قال لها: لا يمكن أن نترك الأمور للمصادفة ! ولا يمكن أن نكشف سرنا لكل من وقف معنا !! وإذا كان لابد من الاختيار فعلى منّ يقع الاختيار؟ وعلى أى أساس ؟ وكانت الحكمة التى تميزت بها " مريم " على مدار هذه الرواية هى التى أشارت إلى الشيخ " دسوقى " عمدة المقاطعة ، فإلى جوار عامل الثقة به كانت أفضليته أنه هو العمدة التى تقع الأحداث كلها فى نطاق عموديته ، وكان الرأى ان مصارحته سوف تدعم الثقة به، وتجعل منها رباطا لا يمكن فصله، وسيقوم هو بتكتيل العمد إلى جوار الشيخ أحمد وبما يناسب تطور الأحداث، وحين أخبره الشيخ أحمد بالحقيقة لم تبد الدهشة على وجهه قال له : كنا نعلم جميعا يا شيخ أن وراءك سراً ولكننا لم نكن نظن أنك بالفعل ذلك الرجل الذى أبلغت الحكومة كل عمد القطر بأنه قام بعمل خطر وأن أسمه أحمد .

نظرة طائر على الحرب الباردة داخل العائلة :
الشفافية والعدل من أمضى أسلحتها :

الحرب الباردة داخل العائلة لم تبدأ إلا بعد سنوات ممتدة من انتهاء الحرب الساخنة مع الأعرابى عبد الله الجياصى ونزوحه عن المنطقة، فى هذه السنوات من السلام والأمن نجحت العائلة فى تحويل مساحات كبيرة من الأرض التى كانت جدباء وسبخة إلى أرض خضراء تعطى ثمارها من القمح والشعير والقطن والذره، والأبناء الذين كانوا أطفالاً فى سنوات الحرب الساخنة أصبحوا فى سن الشباب والمراهقة وجاء من بعدهم أطفال جدد، كانت مريم أم الشيخ أحمد الذى يقود الآن رحلة الصعود الثانى للسراسوه، والتى كانت دائما معه وبجواره فى كل الأوقات الصعبة، كانت الآن قد تراجعت قليلا إلى الوراء بعد أن أصبح ابنها زوجا لأربعة

من النساء ولسبعة من الأبناء والبنات،وكانت من هذا الموقع أول من شمت روائح هذه الحرب الباردة ، وأول من أدرك أنها يمكن أن تشب فى أكثر من مكان وأكثر من وقت وأيقنت أنها من هذا الموقع الخلفى والأمامى فى وقت معا يمكن أن تساعد فى نزع فتيل هذه الحرب التى قد تهدد العائلة بأكثر مما هددتها حربها مع الأعرابى السابق عبد الله الجياصى .

كان أول ما رأته مريم من بوادر هذه الحرب هو ذلك الاختلاف الواضح فى الشخصية والطباع بين موسى وسيد أحمد ابنى ولدها الشيخ أحمد البكربين من زوجتين مختلفتين ، وكان يبدو وكأنهما تقاسما شخصية الأب التى صقلتها التجارب والسنون، فالجزء الشاب الذى كان صاحب الضربة الأولى فى رأس المملوك "قفل" والذى قاد رحلة الخروج واحتمل أهوالها كان يبدو أنه هو الذى ورثه موسى، والجزء الكهل الذى أنضجته التجارب، والذى جعلته يدرك أن جنتهم التى خرجوا منها فى سرس يمكن صناعتها فى أى مكان آخر بالذكاء والخيال والحكمة هو الذى ورثه " سيد أحمد " ، وربما لأن شيئاً كهذا هو الذى استقر فى وجدان " مريم " كان أحد الأسباب التى جعلتها وهى تشعر بأنها تكاد تفقد الابن الذى كان كل حياتها تستعيض عن انشغاله عنها بالاقتراب الحميم من حفيدها " سيدأحمد " وفى الواقع أن هذا الاختلاف فى الطباع بين الحفيدين لم يصبح بادرة من بوادر هذه الحرب فى وجدان مريم إلا فى تلك الليلة التى عاد فيها ولدها الشيخ أحمد من الغيط مع ولديه موسى وسيداحمد وطلب أن ينضم اليهم الأم الخبيرة، وعدد آخر من الأولاد ممن شهدوا الواقعة، قبل هذه الواقعة، كانوا قد سمعوا ان أعرابياً جديداً اسمه عماد السمدانى ، سمحت له الدولة بشراء الأراضى التى كان يمتلكها الأعرابى القديم عبد الله الجياصى فى إطار سياستها فى توطين الأعرابى .

والواقعة كما رواها الشيخ أحمد فى اجتماع العائلة ، أن بعض أبنائه أبلغه أن عددا من الأعراب – الذين لا شك من رجال الأعرابى الجديد – يركبون خيولهم، ويخترقون أراضى الشيخ أحمد وصولاً إلى الجزء الذى يشتغل فيه العمال لحفر

خندق كبير يكون بمثابة خزان هائل يحتجز ما يمكن احتجازه من مياه الفيضان، لاستخدام هذه المياه طوال العام لغسل الأرض السبخه مما فيها من أملاح، وكان موسى هو صاحب الفكرة ومن تابع إنجازها وحين اقترب الأعراب من مكان الحفر، أمروا العمال بالكف عن الحفر، ولما لم يأبهوا لهم أطلقوا أعيرة نارية فى الهواء لإرهابهم فتركوا فئوسهم وبعض ملابسهم وولوا هاربين، ولما رأوا الشيخ أحمد وأولاده قادمين ، عادوا لمراقبة ما يجرى، بينما كان أحد هؤلاء الأعراب قد قام بأخذ بعض أدوات العمال وملابسهم حين أصبح الشيخ أحمد فى مواجهة الأعراب سألهم : عمن هم ؟ وماذا يفعلون بأرضه ؟ ... لم يتلق إجابة على سؤاله ولكن أحدهم قال له : إذا اراد أن يحصل على ملابس عماله عليه أن يأتى ويأخذها من شيخهم فى مضاربهم ..

رد الشيخ أحمد بهدوء متعمد : من الأفضل أن تدع هذه الأشياء لأنك إذا لم تفعل ستتسبب فيما لا تحمد عقباه ....

وجاء الرد بكلمات مضغمه لا تفصح عن معنى وقبل أن يتم الأعرابى كلماته وجد نفسه مطروحاً على الأرض تحت أقدام موسى، وقبل أن يستوعب الآخرون ما جرى كانت الغدارة قد أصبحت فى يد موسى، وكذلك السيف الذى لا يدرى أحد كيف انتزعه موسى من غمده ..

أربكت المباغتة الأعراب، كما أربكت الشيخ أحمد أيضا والذى كان قادراً على إدراك أن الموقف لا يزال فى غير صالحهم، ولذلك وحتى لا يكون كل شئ خاضعاً للتصرفات الهوجاء أسرع إلى ابنه، وحصل منه على أسلحة الأعرابى المطروح على الأرض ولكنه لم يعد إليه من هذه الأسلحة سوى سيفه فقط قال له: هذا لكى لا يجرد الفارس من سيفه، هذا إذا كنت فارساً حقاً ولك أخلاق الفرسان، أما الغدارة والسوط فقد استخدمتهما للاعتداء على رجالى ولن يتسلمهما إلا شيخك.

ثم أمرهم بأن يلقوا بأغراض العمال وأن ينصرفوا إلى حال سبيلهم، وكان هذا ما فعلوه دون زيادة أو نقصان. بعد أن انتهى الشيخ أحمد من رواية الواقعة لمن لم يشهدها من العائلة .

كانت الأم الخبيرة وهى جدة لكل الحاضرين أول من تحدث :

- الوافد الجديد يختبرك يا شيخ أحمد، وحسنا ما فعل موسى إذ لو مضوا بعملتهم دون وقفه، فربما كانت العاقبة أسوأ، وعليك أن تستعد يا شيخ أحمد من الآن لمواجهة هذا الأسوأ

قالت مريم وكأنها تتذكر تاريخا طويلا من القتل والمطاردة والحرب .

- سيجاورنا العمر كله يا جدتى ، داره لصق دارنا وأرضنا لصق أرضه ألا يكون السلم هو الأوفق ؟! وعادت الأم الخبيرة تقول :
- أى سلم يا مريم ؟ سلم الضعيف الذى يفر عند المواجهة ...

قالت مريم :

ما فعله موسى فيه الكفاية .

لم يكن الشيخ أحمد قد تكلم حتى هذه اللحظة .. وحين تكلم جاء كلامه تعبيرا عن شعور مزدوج بالحيره قال :

- تصرف موسى لم يكن محسوبا، وكان مفاجئا لى وبالرغم من ذلك أشعر الآن أنه كان صحيحا وفى وقته وأخيراً قال سيد احمد :
- أنا من رأى جدتى، وما فعله موسى كاف للرد وزيادة، النظرة التى رأتها مريم فى تلك الليلة فى عينى موسى بعد أن استمع إلى رأى أخيه سيد احمد كانت هى بداية شعورها الحقيقى بأن اختلاف الطباع بين موسى وسيد أحمد قد يكون بداية شرخ عميق فى جدار الأسرة التى تبنى صعودها الثانى موسى فى تلك الليلة هو الوحيد الذى لم يفتح فمه بكلمة واحدة ربما كان يشعر بأنه قد قال كلمته " فعلا " يفوق أى كلام، وربما فى تلك الليلة فقط ولدت أسطورة موسى فى العائلة بل وفى المنطقة كلها، أما سيد احمد فقد كان صاحب عقل وحكمة، وهما قد يصنعان أشياء كثيرة جيدة جداً لخدمة

ذلك المشروع، مشروع الخندق الذى ينسب كله لموسى، ولكنهما لا يصنعان الأساطير وربما هذا ما كانت تشعر به مريم فى تلك الليلة، وما دفعها أكثر لمواصلة اقتربها الحميم من حفيدها سيد أحمد لتعوضه عن شئ تـرى أنـه يستحقه ولا يناله، بوادر لحرب أخرى باردة كانت تراها مريم فى مكان آخر من العائلة بين زوجات ابنها الشيخ أحمد، زوجته الأولى ابنة عمه " حورية" وزوجته الثانية " سرية " ابنة عم آخر .

و " شام " زوجته الثالثة ، التى كان زواجه منها جزءا مـن طموحـه لتوطيـد علاقته بعائلة كبيرة فى المنطقة الجديدة التى انتهت عندها رحلة الخروج ولقد كان ما حصلت عليه الزوجة الثالثة بعد وفاة أبيها من ثروة كبيرة جاءت فـى صـورة قطعان من البقر والماعز والضأن، فى النهاية كانت الثروة التى تأتى من نتاج هذه القطعان تصبح ملكا خالصا لها ، تتصرف فيها كما تشاء، وكان كمال المروءة فى عرف زوجها ألا يتدخل فى الطريقة التى تتصرف بها فى هذه الأموال، فهى فـى نهاية الأمر أموالها، ولكن حين تصل الأمور وقد كثرت فى يدها الأموال أن تـؤثر أولادها الصغار بمزايا فى المأكل والملبس يمكن أن تثير الغيرة فى نفوس إخـوتهم من أمهات أخريات، فهذا ما أدى إلى إشعال الغيرة فى قلبى حورية وسرية، وما قد يؤدى إلى شقاق بين الأب وأبنائه، وأن يحدث هذا فى العائلة التى يذهب فيها إلـى الحقل طعام واحد لأبناء العائلة ومن يعمل معهم من الأجراء فقد يبدو فى نظر مريم وكأنه مقدمات ليوم القيامة ، ولكن مريم التى اعتادت أن تقوم بدورها من قديم فـى مواجهة هذا النوع من المشكلات بين زوجات ابنها، حاولت أن تهون الأمر علـى زوجتى ابنها " حورية " "وسريه " قالت لهما :.

– أم بقر – وكانت هذه تسمية " شام " بينهما على سبيل التندر والـسخرية– ليس لديها إلا أبقارها حمى بسيطة قد تذهب بها أما أنتما فلكما فى هذه الأبعدية مـا يصل إلى نصفها .

حورية هى التى قالت :

- هذا إذا كان ما تقولينه صحيحا يا عمتى !؟

بادلت هى وسريه النظرات ولاذتا بالصمت .

قالت مريم :

- ما الذى تخفيانه عنى يا بنتى أخوى ؟

حكت سرية قصة ابنها سيد أحمد الذى كان يبحث فى دولاب ابيه عن بعض الأوراق فعثر بمحض الصدفة على صورة عقد الأبعدية، وحين ألقى عليه نظرة عابره، وجد أن العقد ينص على أن الأبعدية كلها مملوكة ملكا خالصا لأبيه ولا إشارة واحدة فى العقد فى أى بند من بنوده إلى ماكانوا جميعا يعتقدون اعتقادا راسخا فى وجوده وفى صحته وهو أن الأبعدية مقسمة بين الجميع بطريقة شرعية وبالنسبة لحورية وسرية فإن لهما ما يستحقانه من إرث أبويهما الغائبين ومن إرث جدتهما الكبرى التى ماتت مريم التى واجهت أخطر الأحداث فى تاريخ الأسرة بل وكانت من أهم أسبابها، شعرت بأن ماتواجهه فى هذه اللحظة هو الأخطر بحق ، فهى لا يمكنها ان تتصور مجرد تصور أن يفعل ابنها ماينسبونه إليه، وإذا كان ما يقولونه صحيحا ولا بد أن يكون كذلك لأن سيد احمد هو من أخبر به، فلا بد أن يكون لدى ابنها أسباب وجيهه أدت إلى أن يكتب العقد بهذه الصورة، وربما تتصل هذه الأسباب بحرصه على ألا يجيئ فى العقد ما يمكن أن يؤدى إلى كشف سر العائلة الكبير ولم تكن المشكلة فى تقديرها كيف تقنع حورية وسرية بصواب ما هى مقتنعة به، بل المشكلة كيف تواجه ابنها بأمر كهذا يمكن أن يفجر العلاقة بينه وبين ابنه سيد أحمد الذى يفتش فى أوراقه من وراء ظهره، بل بينه وبين أفراد العائلة لو ظن للحظة أنهم يسيئون به الظن أو يطلبون دليلاً على صدق نواياه ، هو الذى خاض الأهوال ليعيد مجد العائلة القديم فى مدينة سرس لكل واحد منهم .

عند هذه اللحظة بدأ عقلها يعمل كما تعود أن يعمل من قبل فى أشد الأوقات حرجاً وصعوبة، استبعدت تماما فكرة أن تبدأ بمفاتحته فى أمر العقد أو ما يتصل به، انتظرت وكأنها على يقين من أن اللحظة التى تنتظرها سوف تجيئ من تلقاء نفسها، كان هو ابنها الغالى هو الذى جاء اليها كما كان يفعل فى الأيام الخوالى، كما

كان يفعل قبل أن يكون زوجا لأربعة من النسوة ولسبعة من الأبناء جاء يشكو اليها مما تفعله زوجته الأولى حورية مع زوجته الثالثة " شام " ، تركته يحكى تفاصيل كانت تعرف عنها أكثر مما يقول، وكانت تفهم من طريقته فى الحكى أنه يريد تدخلها لتهدئة الأمور بين زوجتيه لأنه لم يعد يقوى على ذلك، وحين توقف فى انتظار أن تعده بحل المشكلة .

سألته بهدوء :

- وما الذى يمكننى عمله ؟

وحين شعرت بأن ردها أحدث له نوعا من الصدمة تابعت قائله :

- ألا تعرف حقا لماذا نقف كلنا فوق برميل بارود؟ لم تشر بكلمة واحدة إلى مسألة العقد الذى رآه سيد أحمد ركزت كل كلامها عما يمكن أن يحدثه شعور شام بأنها بثروتها فى وضع أفضل من وضع حورية وسرية، وكيف يمكن أن يؤثر ذلك على مشاعر موسى الذى يسمونه ذئب الغيطان، والذى يقتل نفسه فى العمل مع الرجال ليضيف إلى الأرض الصالحة للزراعة أرضا جديدة كل عام بسبب فكرة الخندق التى ابتدعها يفعل ذلك فى صمت ودون أن يطلب ميزة لنفسه أو ينتظر حتى مجرد شعور بالامتنان، شأنه فى ذلك شأن بقية الأخوة الذين لا يفكرون إلا فى مصلحة الجميع! ثم تأتى شام لتفسد ما تميز به السراسوة وأبناؤهم .

- أأمنعها من التمتع بميراثها يا أمى ؟

- مثلما استطعت أن تمنع الآخرين ؟

- منعت من يا أمى ؟

الطريقة المبهرة التى واصلت بها الحوار مع ابنها والتى تؤكد على فكرة ألا أحد فى العائلة يتميز على أحد فى شئ مع أنهم جميعا شركاء فى امتلاكهم للأبعادية، ودون أن تشير بكلمة واحدة إلى مسألة العقد هى التى دفعته دفعا إلى أن يتركها لبعض الوقت ليعود بمجموعة من الأوراق ، ضمنها العقد الذى تحدث عنه سيداحمد ، والى جواره عقود أخرى مكتوبة هى التى لم تقع بالصدفة أيضا فى

يد سيد أحمد، هذه العقود هى التى يبيع فيها الشيخ أحمد لكل صاحب حق فى الميراث من العائله، حقه كاملا باعتباره مالكا للعزبة بمقتضى العقد الأول، وفى هذه المرة كان الشيخ أحمد هو الذى دعا ابنه سيد أحمد – ودون أن يعرف أنه من كان وراء هذه المشكلة – ليقرأ لجدته مريم ، ولمن حضر وقتها من أفراد العائلة ما هو مكتوب فى كل هذه العقود .

وانتهى الموقف البالغ الصعوبة بالشيخ أحمد وهو يقول :

– لست أنا الذى يغتال حق أحد يا أمى !؟ .

"موسى" و "سيدأحمد" رؤيتان للحرب الساخنة الثانية للعائلة :

تقول الحكايات أن الأعرابى الجديد عماد السمدانى كان يختلف كثيراً عن الأعرابى القديم وكأنه تعلم درساً مما حدث له كان رد فعله على ما حدث مع رجاله أنه استعان بأحد العمد فى المنطقة لاستعادة الغدارة والسوط اللذين كانا للأعرابى الذى طرحه موسى أرضا ، ولإزالة سوء التفاهم الذى حدث نتيجة الواقعة، وكأنه بهذه الطريقة يريد أن يظهر أمام عمد المنطقة أنه يريد العيش فى سلام مع كل جيرانه، مع ذلك ومع اللقاء الذى تم بين الجارين فى بيت الشيخ أحمد مع جمع من العمد وصافح فيه الشيخ أحمد جاره عماد السمدانى ، وقبل كتفه متنازلاً عن طلب الاعتذار الذى كان مصراً عليه، ومع أن الشيخ أحمد تمشياً مع الأصول رد هذه الزيارة لعماد السمدانى فى مضاربه وبصحبة ولديه موسى وسيد أحمد وحين عادا من تلك الزيارة فإن الأب اراد ان يسمع من كل من ولديه انطباعا عن تلك الزيارة.

قال سيد أحمد : أنا مع السلم حيث كان، ففى ظل هذا السلم حفرنا خندقا ووضعنا علامات الحدود الثابتة بيننا وبينهم، وأصلحنا الكثير من الأرض البور ووضعنا بهذه الزيارة أساسا لعلاقات حسنة مع الشيخ مساعد ولا أظن أنه سينقضها!

وقال موسى : أنا مع أخى فى أن ما أنجزناه فى وقت السلم شئ كبير لكنى لازلت أرى أنه لا ينتوى خيراً، فلقد رأيت فى عيون القوم شراً قادماً، وربما تكون هذه هى طبائعهم .

فى ذلك اليوم عاد الشيخ أحمد بذاكرته إلى تلك الأيام الماضية التى رجع فيها من العزاء فى وفاة صهره ، وفوجئ بذلك الإنجاز الضخم الذى قام به موسى فى غيبته كان قد أتم حفر الخندق، وملأه بمياه الفيضان إلى جوار ما قام به موسى أيضا من بناء مندرة بجوار الأرض المزروعة، وأحاطها بمجموعة من الحفر التى يمكن الكمون فيها لمواجهة أى عدوان على الأرض أو على المندرة، فبدت المندرة كقلعة حصينة تدافع عن العزبّة أرضا ومساكن ! .. يومها سأل سيد أحمد: وكانت أحداث الصدام مع رجال الأعرابى الجديد لا تزال قريبه .

- هل مرت كل هذه الأعمال دون مناوشات ؟
- ربنا ستر .
- وماذا ترى فيما تم ؟
- من الصعب أن نهيئ حياتنا على أنها فى حالة حرب دائمة ،
- ولكنها لم تكن فى حالة سلم دائمة .
- لست أدرى ، لكنى أكره أن استدرج للقتال !
- وإذا فرضت عليك الحرب .
- لن أعدم وسيلة لإنفاذ ما أرى .
- وماذا لو أن ذلك ينال من اعتبارك ؟
- هذا يتوقف على معنى ما نسميه الاعتبار أو الكرامة ؟! .

حين تذكر الشيخ أحمد ذلك الحوار القديم بينه وبين سيد أحمد عقب تلك الزيارة التى قاموا بها للسمدانى وعقب ما سمعه من تعليق ولديه موسى وسيدأحمد على تلك الزيارة، أدرك الشيخ أحمد أن الاختلاف بين طبائعى ولديه ليس من النوع الذى يمكن تجاوزه ولكنه ظل يحلم بأن يأتى يوم يمكن أن يتحقق فيه التكامل بين اندفاع موسى وحذر سيد أحمد بين جسارة موسى وتحفظ سيد أحمد، بين فتوة موسى ورقة سيد أحمد .

ولكن هذه القراءة النقدية للجزء الثانى من الرواية تفعل هنا ما فعلته فى قراءة الجزء الأول ، تترك للقارئ ان يتابع فى هذا الجزء وقائع الحرب الساخنة

الثانية التى خاضتها العائلة وحدها هذه المرة ضد الأعرابى الجديد عماد السمدانى، لأن هذه الحرب فى الحقيقة لم تكن بين الأعرابى والسراسوة ، كانت بين السراسوه ومجموعة من اللصوص والمنسر خاضوا هذه الحرب بالوكالة عن الأعرابى وانتهت هذه الحرب بهزيمة اللصوص، والإمساك بهم وتسليمهم للحكومة لمحاكمتهم، وتكتفى هذه القراءة النقدية بأن تقدم رؤيتها هنا لشخصية موسى وشخصية سيدأحمد من منطلق أن الكثير مما يحدث فى الحاضر له بذوره أو جذوره فى الماضى القريب أو البعيد وفى ضوء ما قدمته هذه الرواية عنهما فى شخصية موسى توجد البذور الأولى لما نسميه الآن الشخصية الأصولية كما أن فى شخصية سيدأحمد توجد البذور الأولى لما نسميه الآن الشخصية الليبرالية .

الشخصية الأولى بالرغم من نزعتها العملية وقد تكون بسببها تصنع الأسطورة وتصدقها وتعايشها فتعتاد على معايشة المطلقات ، فهى تريد النصر الكامل لما تؤمن بأنه حق أو بأنه حقها وتريد المحق الكامل لما هو باطل أو لما يهدد أمنها الذى تريده كاملا وغير منقوص والشخصية الثانية مع أنها تحترم القواعد والنظم إلا أنها تعشق الحرية عشقها للحياة، فالحرية هى المفجر الأعظم لمكنونات الحياة وأسرارها التى لم تكتشف بعد، وهى حين تحترم القواعد والنظم ، فلأنها ترى أن هذه القواعد والنظم هى أفضل الطرق حتى الآن لتحقيق الحرية للجميع مادامو هم من وضعوا هذه القواعد، فإذا احتاجت الحياة فى تطورها المستمر إلى قواعد أو نظم جديدة تلائم هذا التطور فلا مانع من تغيير هذه القواعد والنظم .

الرؤية النهائية التى يقدمها لنا الجزء الثانى من ملحمة السراسوه هو أن أصولية موسى لم تلتحم أبداً بليبرالية سيد أحمد، وأن حلم الشيخ أحمد بتكامل ولديه لم يتحقق فقام بنفسه فى حياته وقبل موته بتقسيم العزبة بين ولديه وللرواية أجزاء أخرى !! ...